

فلسفة العرفان (دراسة تحليلية)

علي الزهيري^١

الخلاصة

انشغل الانسان وبمرور الأزمان بالبحث عن الحقيقة وواقعية الاشياء، ومن طلب الحقيقة لا يعدوان يكون من المتكلمين او الحكماء او العرفاء، لأنهم اتجهوا صدقا صوب الحقيقة لإصابتها والوصول الى اللذة المنشودة من خلالها. وعلى الرغم من اتفاق هذه الفرق الثلاثة على هدفهم - وهو الوصول الى الحقيقة - الا انهم اختلفوا في طرق الوصول لها؛ فالمتكلم اعتمد على النص الشرعي، والحكيم اتخذ من العقل الوسيلة الرئيسية، اما العارف فقد اتخذ من طريق السير والسلوك سبيلا للوصول الى الحقيقة عن طريق ممارسة الرياضات الروحية وتزكية النفس

لدراسة الفلسفة واصولها الاهمية الكبرى للعارف ومن يسير بدرب السير والسلوك، وحيث ان السالك في بداية دربه يقوم بتزكية نفسه عن طريق تنظيفها وتخليتها من كل درن وشائبة، ومن ثم تشریف النفس وتحليلتها بكل ما هو جميل في نظر الشريعة ليكون مستحقا للتجليات الإلهية. فما دام هو يقصد الكشف والحقيقة من خلال المجاهدات فلا بد من ان تخضع هذه المكاشفات وما يرزق به من شهود الى القوانين العقلية الفلسفية إذ: لابد للسالكين من اصحاب المجاهدات السائرين في طريق الحقيقة بمساعي الجد والاجتهاد ان يحصلوا العلوم الفكرية والمعارف اليقينية النظرية بعد تصفية القلب من شوائب النسب الخارجية بقطع العلائق المكدرة وتحليلته بمكارم الاخلاق ومحامدها حتى تصير هذه العلوم النظرية التي من جملتها الصناعة الآلية المميزة بالنسبة الى المعارف الذوقية كالعلم الآلي المنطقي بالنسبة الى العلوم النظرية، وذلك لأن الملكة الحاصلة عقيب استحضار الابحر الشعرية والنغم الموسيقية، فإن بها يتمكن صاحبها من التمييز بين الموزون وغير الموزون مما يتحير فيه اصحاب النظر. فإذا استحصل السالك المجتهد تلك الملكة، فلو تحير في اثناء الطلب والسلوك وتوقف في بعض المطالب التي لا تحصل له بالفكر يتمكن من استخراجها بتلك الملكة الفاضلة من توجيه حقيقته للمسترشد الناقد ولا يخفى ان هذا أتم في الكمال والتكميل.

الكلمات الرئيسية: الفلسفة، العرفان، السالك، الرياضات الروحية، المكاشفات

المقدمة

بيان البحث:

يعد الانسان غاية الوجود، والمعرفة هي ما تبحث كل شيء عن الانسان من جوانب عدة، منها الديني والثقافي والاجتماعي والبيولوجي وغيرها.

^١. ماجستير في التفسير وعلوم القرآن في جامعة المصطفى المفتوحة

ان هذا الكائن الفريد (الانسان) كان وما يزال موضعاً للتأمل والدراسة من قبل مختلف العلوم. أن يكون للإنسان قيم يؤمن بها ويتمحور حولها وتصبح هي الحاكمة على حياته ويتعامل مع الملذات والشهوات تحت إطار هذه القيم. هذه الحالة تسمى حالة التدين. فحياة غير المتدينين متدهورة؛ لأن التدين يحبي البعد الروحي في شخصية الإنسان، وهو الذي يميز الإنسان عن الحيوانات حيث لا يوجد عندها بعد روحي، بينما حقيقة الإنسان تحتوي على هذا البعد، فالإنسان بالروح لا بالجسم.

لا يخفى على ذوي البصيرة أن السر الحقيقي لخلق الانسان ونشأته وتكامله هو بغية الوصول الى الحقيقة وهي ذروة ما في استعداد ووعاءه، ان الغاية الالهية من خلق الانسان لم تكن لمجرد اكله وشربه وانغماسه في الشهوات ولو في الطرق المحللة. ولم تكن ليعيش الفرد وسط افراد مجتمعه ليسلك سبل عاداتهم وتقاليدهم سواء أكانت قبلية أم مدنية. وإنما للوصول الى أعلى ما يمكنه الرقي وفقاً لإستعداد ووعاءه قال تعالى: (فَسَأَلْتُ أَوْدِيَّةً بِقَدَرِهَا...) (سورة الرعد : الآية ١٧) ولعل ما جاء في قوله تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) (سورة الذاريات: الآية ٥٦). يفصح عن ذلك السر الحقيقي.

ان اسمى ما في هذا الوجود العظيم والمنظومة الكونية الرائعة في التصميم الهندسي هو ان يعبد المخلوق خالقه بمعرفه وعلم ليقر بذل العبودية امام خالقه ويتحسسها، كما ان حرف الـ(لام) في كلمة (ليعبدون) يشير الى جنس العبادة لا غيرها.

واذا اراد الانسان ان يتقرب الى ربه الكريم ويدخل في ساحة حبه وعشقه تبارك وتعالى ويسرح في ميادين السابقين فعليه ان يعرف ربه ويعرف من يعبد اولاً، فإذا عرفه وعرف اسمائه وصفاته يبدأ قلبه بتلذذ الحب الالهي، كما ورد في مناجاة المحبين للإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام:

«إِلَهِ مَنْ ذَا الَّذِي ذَاقَ حَلَاوَةَ مَحَبَّتِكَ فَرَامَ مِنْكَ بَدَلًا وَمَنْ ذَا الَّذِي أَنْسَ بِقُرْبِكَ فَأَبْتَغَى عَنْكَ حَوْلًا... أَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ وَحُبَّ كُلِّ عَمَلٍ يُوصلُنِي إِلَى قُرْبِكَ، وَأَنْ تَجْعَلَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا سِوَاكَ وَأَنْ تَجْعَلَ حُبِّي إِيَّاكَ قَائِدًا إِلَى رِضْوَانِكَ وَشَوْقِي إِلَيْكَ ذَائِدًا عَنْ عِصْيَانِكَ» (القمي، ١٣٦٣هـ ش: ١، ص ٣٤).

فيبدأ بالخلاص من كل سيئة قد ادخلت الى قلبه فينقيه: «أَنْتَ الَّذِي أَرَلْتَ الْأَغْيَارَ عَنْ قُلُوبِ أَحِبَّائِكَ حَتَّى لَمْ يُجِبُوا سِوَاكَ» (المرجع نفسه). ومن ثم يدخل اليه كل ما يحبه محبوبه ويقبل به ويرضيه ويفرح به لينطلق القلب الى صعودا الى خط الكمال فيتسامى باخلاقه الزاكية وروحه اللطيفة مقتربا من العلي الاعلى. لذلك، ورد عن المعصومين عليهم السلام في تفسير كلمة (ليعبدون) بأنها المعرفة أي ليعرفون:

«حدثنا أبي رضي الله عنه قال: حدثنا أحمد بن إدريس عن الحسين بن عبيد الله عن الحسن بن علي بن أبي عثمان عن عبد الكريم بن عبد الله عن سلمة ابن عطا عن أبي عبد الله "ع" قال: خرج الحسين بن علي عليهما السلام على أصحابه فقال: أيها الناس ان الله جل ذكره ما خلق العباد إلا ليعرفوه فإذا عرفوه عبدوه فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة من سواه، فقال له رجل: يا بن رسول الله بأبي أنت وأمي فما معرفة الله؟ قال معرفة أهل كل زمان إمامهم الذي يجب عليهم طاعته» (الصدوق، ١٤٢٧هـ: ج ١، ص ٣٣).

فإذا ما تحققت المعرفة تحققت العبادة وإذا تحققت العبادة تحقق الحب وهو بدوره يقود العبد الى طريق الكمال والتسامي الروحي تجاه الخالق تبارك وتعالى.

هدف البحث:

لاشك ولا ريب ان الدين هو السبب الحقيقي الموصول للسعادة الابدية، ولكن يا ترى أي دين هذا الذي يوصل للسعادة المنشودة؟ أهو الدين الذي تم تحريفه من قبل السلاطين ووعاظهم؟ ام هو الدين الذي اتخذه الماديون اعتمادا على العقل فقط بمعزل عن السماء؟ الى كثير من التساؤلات ...

ان المقصود من الدين الموصول للسعادة هو الدين المرتبط بالوحي السماوي الذي لا يأتيه الباطل ابدا، هذا الدين الذي حرص الله تعالى نفسه عليه بل وتكفل بحفظه. كما ان اضمن طريق للوصول الى المعنى الحقيقي والجوهري للدين هو طريق التزكية للنفس والسير والسلوك الى الله تعالى بغية الكشف عن الحقيقة ومشاهدتها؛ وهذا ما يطلق عليه اهل السير والسلوك بالعرفان. إذن؛ ما نريده من بحثنا هذا هو الوصول الى ان العرفان هو الطريق الاسمي للسعادة.

الخلفية البحثية:

علم العرفان من العلوم التي حدث الاختلاف عليها من حيث القبول او عدم القبول، أي من حيث اعتبارها من العلوم التي يوافقها الشرع ام التي يرفضها. إذ اختلفت آراء العلماء في قبول او رفض علم العرفان، فمنهم من اعتبره من العلوم التي تقرب من الله تعالى بل هي صلب الدين والايمان كأبن عربي، ومنهم من ذهب الى ان هذا العلم هو علم باطل وبدعة تستوجب دخول النار كابن تيمية، وكل من الفريقين ساق الادلة على مدعاه.

المبحث الاول: العبادة والعرفان

المطلب الاول: العرفان في اللغة والاصطلاح

اما لغة: فقد اشتقت مفردة عرفان من (عَرَفَ): فقد جاء في كتاب لسان العرب: «عرف: العرفان: العلم... عارف يعرف الأمور ولا ينكر أحدا... والعريف والعارف بمعنى مثل عليم وعالم، قال طريف بن مالك العنبري، وقيل طريف بن عمرو: أو كلما وردت عكاظ قبيلة، بعثوا إلي عريفهم يتوسم؟ أي عارفهم.

وعرفه الأمر: أعلمه إياه. وعرفه بيته: أعلمه بمكانه. وعرفه به: وسمه.

ومنه حديث طاووس:

أنه سأل ابن عباس، رضي الله عنهما: ما معنى قول الناس: أهل القرآن عرفاء أهل الجنة؟ فقال: رؤساء أهل الجنة» (ابن منظور، ١٤٠٥ هـ: ج٩، ص ٣٢٠).

اما في الاصطلاح: فقد ورد في تعريف هذه المفردة عدة تعريفات؛ منها:

ما ورد عن القيصري: «هو العلم بالله سبحانه من حيث اسماء وصفاته ومظاهره واحوال المبدأ والمعاد وبحقائق العالم وبكيفية رجوعها الى حقيقة واحدة هي الذات الالهية ومعرفة طريق السلوك والمجاهدة لتخليص النفس من مضائق القيود الجزئية واتصالها الى مبدئها واتصافها بنعت الاطلاق والكلية» (القيصري، ج ١، ص ٥٤).

ما ورد عن ابن سينا: «هو التوجه الباطني المستمر، والانصراف الفكري لجهة قدس الجبروت بمنظور اشراق نور الحق في قلب الانسان» (الجوادي الآملي، ١٤١٥ هـ: ١، ص ٩٨).

«ان العارف هو صاحب المعرفة، بل الذي تكون المعرفة هي حاله والحال هنا هو الكيان والذات فلا يفكر ولا يعمل ولا يتحرك ولا يعبد الا بمعرفة» (جرادي، ٢٠٠٩ م: ١).

يقول العلامة الطباطبائي قدس: «ان العارف هو الذي يمكنه الانقطاع قلبا عن هذه النشأة مع تمام الايقان باللازم من المعارف الالهية، والتخلص الى الحق سبحانه، وهذا هو الذي يمكنه شهود ما وراء هذه النشأة المادية والاشراف على الانوار الالهية كالأنبياء عليهم السلام» (الطباطبائي، ١٩٨٣ م: ١، ص ٤٥).

وما توصل اليه الباحث في معنى مفردة العرفان هو: ما يصل اليه العارف من كشف نتيجة التزكية الباطنية الخالصة مما يؤدي الى وصوله للحقيقة.

المطلب الثاني: مقدمات العبادة

قام احد الاعلام رحمه الله بتقسيم العبادة الى لفظية وعملية ومن ثم قدم تعريفا لكليهما: «فاللفظية عبارة عن سلسلة من العبارات والاذكار التي تجري على السنتنا كقراءة الحمد والسورة، واذكار الركوع والسجود والتشهد في الصلاة، وكذا التلبية في الحج. اما العبادة العملية: فهي من قبيل الركوع والسجود في الصلاة، والوقوف بعرفات والمشعر الحرام، والطواف في الحج. وغالبا ما تشتمل العبادة على قسم لفظي وآخر عملي كالصلاة والحج: فكلاهما فيه قسم لفظي وآخر عملي» (المطهري، ١٤٢٥ هـ: ١، ص ٤٥).

من اجل الوصول الى العبادة التي يريدها المعبود من خلقه وموجوداته، لابد من مقدمات خاصة على الانسان ولا سيما السالك ان يتبعها من اجل الوصول الى معبوده.

ولعل من ابرز هذه المقدمات هو امر تهذيب الاخلاق وتزكيت النفس وتهيتها الى الصعود للدرجات الاعلى. فالقرآن الكريم نفسه يؤكد على هذه الحقيقة، بل ويخبر الامة بأن سر بعثة رسول الله صلى الله عليه وآله هو من اجل الاخلاق حيث قال في محكم كتابه الكريم: «وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ» (سورة القلم: الآية ٤).

كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله في هذا الشأن نفسه بأنه انما بعث من اجل ان يوصل الامة الى مستوى راق من هذه الناحية.

اذن؛ فالخطوة الاولى نحو العبادة هي تهذيب الاخلاق وتزكيتها وتزكيتها: «اعلم ايديك الله ان النبي صلى الله عليه وآله قال: (انما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق)» (المجلسي، ج ١٦، ص ١٩٩).

ولا التباس في ذلك، فإن امر المعاد والمعاش لا ينتظم ولا يتنهأ طالبا الا بالخلق الكريم، فلا تتوهم ان العمل الصالح الكثير ينفع من دوم تهذيب الخلق وتقويمه، بل يجيء الخلق السيء فيفسد العمل الصالح كما يفسد الخل العسل فأبي

نفع فيما عاقبته الفساد... واعلم ان من نظر الى طريقة اهل البيت عليهم السلام وتتبع في آثارهم وجد هدايتهم للخلق وجلبهم للدين انما هو بأخلاقهم الكريمة، وبذلك امروا شيعتهم فقالوا: كونوا دعاة للناس بغير السنتكم. (البحراني، ١٤١٣هـ: ١، ص ٤٥).

واذا تم هذا الامر وهو تهذيب الاخلاق فينتقل السالك الى مقدمة جديدة وهي تصفية قلبه، فاذا صفى قلبه ذاق حلاوة الحب والعشق الالهي، وصار يتسامى صعودا نحو التجرد المطلق مبتعدا عن كل الشوائب والادران، تاركا خلفه اسباب الظلمات والبقاء فيها متجها الى النور ومتعلقا بأسبابه: (ان القلب اذا صفى وتخلى عن الدنيا سما ووجد حلاوة حب الله. ولا بد لمن اراد السير والسلوك من السعي اولا في سلامة القلب من الغواشي الظلمانية والخطوات الشيطانية، ف«ان القلب اذا صفا ضاقت به الارض حتى يسمو»؛ قال تعالى: (الا من اتى الله بقلب سليم)؛ فإن القلب سلطان الجوارح، اذا سلم سلمت، واذا فسد فسدت الدنيا والاخرة.

ولا بد للسالك من السلامة فيما يورد على قلبه. وجميع الاخلاق الحسنة والصفات الممدوحة راجعة الى امر القلب، كما ان السيئات والاخلاق المذمومة ايضا كلها راجعة الى القلب» (آقا نجفي اصفهاني، ١٣٨٨هـ: ١، ص ١٧٨).

ومن خلال تهذيب الاخلاق وتصفية القلب إذ سيكونان سبيلا الى الشعور بالعبودية لله تعالى، وحيث ان اسماى شيء يتقرب به الانسان اليه تعالى هو ان يكون عبدا له؛ فلا محيص من الجهاد والمجاهدة في سبيل الوصول الى هذه الرتبة التي اكثر من تميز بها وتلبس بها هو النبي الخاتم محمد صلى الله عليه وآله. فكل من يصلي يشهد بهذه الصفة لرسول الله (وأشهد ان محمدا عبده ورسوله): «ومن هنا نفهم لماذا كان محمد صلى الله عليه وآله يجلس جلسة العبد حتى حين الاكل، فلم يستطع ان يغفل للحظة عن عبوديته لله تعالى، فكانت حياته كلها طريق للعبودية التامة لله، وطريق العبودية هو الصراط المستقيم ولأجل ذلك جعل الله محمدا اسوة لكل البشر، فكل من اراد ان يكون عبدا لله تعالى عليه ان يسير على خطا محمد صلى الله عليه وآله» (العالملي، ١٤٣٩هـ: ١، ص ٢١٠).

المطلب الثالث: طريق العبادة هو المعرفة

من هنا صار لزوما على الانسان العابد المتجه الى ربه أن يسلك طريق المعرفة ولا غير، وذلك من خلال دراسة اسماء الله تعالى وصفاته وافعاله جل جلاله. فمن عرف الله تعالى وادرك ان المبدأ والمعاد منه واليه وأن نفسه وجميع الموجودات هي بيده تبارك وتعالى؛ توجب ان يتجه بعبوديته الى هذا الخالق المستحق للعبادة فهو على كل شيء قدير، فههدف العابد هو الحق ومعرفة الحق لا غيرها: «ان العارف موحد من حيث الغاية، هدفه الله وحده، لا يطلب الله من اجل نعمه الدنيوية او الاخروية؛ لأنه لو كانت القضية على هذه الشاكلة لكانت غايته هذه النعم بذاتها، ولا يكون الله حينها الا وسيلة ومقدمة، وانما معبوده ومطلوبه الحقيقي هو تلك النعم، او بكلمة ادق يكون معبوده ومطلوبه هو نفسه، لأنه يريد هذه النعم لأجل اشباع رغباته.

اما العارف فكل ما يطلبه انما يطلبه لله، وهو اذا اراد النعم الالهية فلأنها من فضله ولطفه. اذن غير العارف يطلب الله لنعمه، والعارف يطلب نعم الله لله» (المرجع نفسه، ص ٣٢٠).

كلما اقترب العبد من مولاه او احس بهذا القرب فسوف ينتفي الكون كله بعينه، فيغدو لا يرى الكثرات الا الوحدة الحقة الحقيقية. فهو لا يرى ازدحامات الدنيا ولا يرى مشاكلها ومعضلاتها بل ولا يرى جميع سلبياتها، وفي ذات الوقت قد تكون هذه السلبيات التي تواجه العابد السالك ما هي الا فعل جميل من رب العالمين، فهي اما ان تكون امتحان واختبار له والغاية هي ان يتسامى العابد صعودا نحو ربه الاعلى، ولسوف يرضى:

«ان العبادة عند العارفين قربان الانسان ومعراجة وتعاليمه وصعوده الى مشارق انوار الوجود. وهي تربية روحية ورياضية للقوى الانسانية، وهي ساحة انتصار الروح على البدن، واسمى مظاهر شكر الانسان لمبدع الخلق، وهي مظهر حب الانسان للكمال المطلق والجميل على الاطلاق. وهي مسيرة الانسانية الى الكمال اللامتناهي. وفي هذا التصور للعبادة نجد لها جسما وروحا، وقلبا وقالبا. فما يتحقق منها باللسان وسائر الجوارح هو ظاهر العبادة وجسمها. وأما جوهر العبادة وروحها فهو شيء آخر، يرتبط بما يفهمه العابد من عبادته وبنوعية تصوره عن العبادة وبالباعث له عليها» (المرجع نفسه: ص ١٥٦).

المبحث الثاني: ميزان العرفان واصوله

لكل علم من العلوم اصول ومبادئ تعتبر في كثير من الاحيان الميزان لهذا العلم او ذاك، وحيث ان العلم يبتني على اصول معينة تتحدد وفقا لمسائل وموضوعات هذا العلم، فإن من ينهض بهذا العلم هو اصوله بل هي ستكون الاساس الذي ينطلق منه كل تطور ممكن ان يحدث للعلم.

والعرفان من هذه العلوم، اذ له مبادئ وله اصول خاصة به.

وما يعزز رؤية الباحث هو تأريخ هذا العلم منذ نشوءه الى يومنا هذا، فنلاحظ التطور الذي حدث للعرفان (بناه، ٢٠١٤م، ص ٣٢٠) من خلال الاعتماد على اصوله ومبادئه وتوسع مساحته موضوعاته ومسائله.

«لابد عند البحث عن نشأة العرفان الاسلامي من البحث عن منابع اتجاه عرف لاحقا بوصفه اتجاها فكريا مستقلا ومتمائزا تحت اسم (التصوف). والذي يظهر من المصادر الاولى ان هذه التسمية استخدمت كمصطلح خاص في القرن الهجري الثاني فأطلقت على اشخاص كأبي هاشم الصوفي، وسفيان الثوري، وغيرهما. وفي بدايات القرن الهجري الثالث اتسع استخدام هذا المصطلح واريد منه الدلالة على عرفاء العراق في مقابل ملامتية خراسان، ثم توسع المصطلح في القرن الهجري الرابع فأصبح يطلق على العرفاء كافة» (المرجع نفسه: ص ٢٢٠١).

تناول علماء العرفان مسألة الاصول والمعايير التي يجب ان تتبع في هذا المجال، لاسيما أن مجال العرفان هو الكشف والشهود للوصول الى الحقيقة. فهل هناك مجال للوقوع بالخطأ وبالتالي عدم اصابة الحقيقة؟ من هنا جاء الاهتمام لوضع وتحديد ميزان واصول هذا العلم: (فالمقصود من الميزان هنا اذن هو الآلة والقانون الذي يمكن من خلاله معرفة مطابقة نتائج علم ما للواقع ونفس الامر) (الحيدري، ١٤٣٦ هـ: ١، ص ١٣٥).

وعلى هذا الاساس يمكن ان نذكر عدة مطالب نحاول من خلالها وضع ميزان عام لعلم العرفان من شأنه ان يأخذ بيد السالك الى طريق الكشف والشهود فيتحقق موضوع العرفان مما يؤدي الى محاولته (السالك) لإصابة الواقع ونفس الامر.

المطلب الاول: الشريعة

وحيث ان العرفان قائم على الكشف والشهود، وعليه؛ فإن أي كشف يحصل للسالك ليس له أي قيمة علمية ما لم يكن الكشف موافقا للشريعة ومواكبا لها. وما إن حدث تقاطع مع قانون عام من قوانين الشريعة فلا تكون حينئذ أي قيمة علمية لهذا الكشف:

«يؤكد العرفاء، وعلى امتداد تاريخ هذا العلم، على كذب المشاهدات العرفانية الحاصلة لدى أي انسان وفي أي مرتبة كان اذا لم تكن مطابقة للشريعة. ولذا، لا بد من ان تكون المشاهدات العرفانية بعيدة عن التعارض مع الحقائق الدينية ليكون ممكنا الاعتماد عليها بعنوان كونها حقائق» (بناه، ٢٠١٤م، ص ١٥٧)

المطلب الثاني: العقل والعلوم النظرية

على العارف ان يكون مطلعاً اطلاقاً كبيراً على العلوم الحسولية لاسيما العقلية منها كالمنطق والفلسفة، وذلك من اجل فهم ادراك القواعد العقلية الكلية، ومن ثم عرض المكاشفة على تلك القواعد:

«وبهذا البيان تتضح مسألة مهمة جداً وهي ان من اراد الوقوف على حقائق العرفان النظري، عليه ان يكون محيطاً بالمباني الفلسفية والقواعد العقلية، وفي غير ذلك سوف يدخل لهذا العلم بلا ميزان ولا ضابطة، وسيكون تعلمه للعرفان عبارة عن حصوله على مجموعة من الامور التي لا يعرف الغث من السمين منها، ولا الحق ولا الباطل، ولا العالي ولا الداني، فلا يدري أهو الرحمن الرحيم ألقى في روعه، ام الشيطان الرجيم خيم على قلبه» (الحيدري، ١٤٣٦ هـ: ص ٣٣٠).

المطلب الثالث: الحاجة الى الشيخ المرشد

ان المسافر اذا هاجر من بلده الى بلد اخر وهو لا يعرف طرق ومسالك احياء المنطقة التي ذهب اليها، فسوف يشعر بالحيرة في احيان، وفي احيان اخرى يشعر بالتردد والاضطراب بلا شك. ولكنه ان وجد احد الاصدقاء من هذه المنطقة التي هاجر اليها فسوف يرشده الى أية نقطة يريد الوصول اليها بأسرع وقت وبأقل جهد وهذا هو دور الاستاذ المرشد ف طريق السير والسلوك؛ فهو يختصر على السالك الكثير من الوقت ويحميه في نفس الوقت من خطر الانحراف والشطحات التي من الممكن ان يتعرض لها السالك اثناء سيره وسلوكه:

«تجد في المصنفات العرفانية التاكيد على ان طي طريق السير والسلوك الصعب دون استاذ مرشد تترتب عليه آثار وخيمة على السالك، بل ان طي هذا الطريق من دون استاذ ليس بالامر الممدوح في الرؤية العرفانية؛ بل قد يون خطراً او محدود النتائج احياناً. ومن وظائف الاستاذ ارشاد السالك الى خصوصيات الشهود والتمييز بين الإلقاءات الشيطانية والشهود

والإلقاء الرحماني... ويعتقد اهل المعرفة ان الاستاذ الحقيقي له الاحاطة التامة بكافة جوانب السالك وهو يعلم بنيته في الظاهر والباطن» (بناه، ٢٠١٤م، ج١، ص ١٣٣).

المطلب الرابع: الوحي الالهي

في الطريق للوصول الى الحقيقة قد يعجز السالك من الحصول على مبتغاه من خلال عدم ادراك بعض الجزئيات مع عدم التمكن من اثبات النتائج، فيلجأ حينئذ الى ما صل اليه المعصوم وما حصل عليه من خلال ارتباطه بالوحي الالهي. بالتالي يقارن السالك ما حصل عليه ويطابقه مع ما حصل عليه المعصوم:

«ان العقل وقواعده يعجز عن ادراك بعض الامور كالجزئيات، ولا يمكنه اثباتها، لجأ العارف الى ميزان الوحي، وهو الاعتماد على ما انتهى اليه عارف كامل معصوم وهو اما النبي او الإمام، فيقيس العارف مكاشفاته بكشف المعصوم الذي لا يتطرق اليه الخطأ والاشتباه، ويطابق ما رآه مع ما اخبر عنه المعصوم، فإن مرتبة كشف المعصوم هي بمثابة الامر البديهي، ومرتبة كشف غير المعصوم هي بمثابة الامر النظري، فيقيسون النظري على البديهي ويرجعونه اليه، فإن وافقه اخذوا به واعتبروه حقاً رحمانياً، وإلا تركوه واعتبروه باطلاً شيطانياً» (الحيدري، ١٤٣٦ هـ: ص ١٧٠).

المطلب الخامس: المكاشف نفسه

تقع على السالك في طريق العرفان مهمة كبيرة جداً وصعبة ايضاً، إذ ان هذا الطريق ليس بالسهولة التي يتصورها البعض. فهناك محطات لا بد للسالك من ان يطويها عن طريق مجاهدة النفس ومراقبتها ومحاسبتها:

«ان اسالك لا يصل الى الكشف والشهود الحقيقي الا بعد قطع المنازل والمقامات الطبيعية والنفسية والوصول الى معدن الحقيقة، وهذا لا يتم الا بتهديب النفس وقطع علائقها بعالم المادة وترك الدنيا وملذاتها والتمكن في تقوى الله سبحانه ومراقبة النفس» (المرجع نفسه: ص ٢١٠).

المبحث الثالث: العرفان والكمال الانساني

لا يخفى على ذوي البصيرة أن السر الحقيقي لخلق الانسان ونشأته وتكامله هو بغية الوصول الى ذروة ما في استعداده ووعاءه، ان الغاية الالهية من خلق الانسان لم تكن لمجرد اكله وشربه وانغماسه في الشهوات ولو في الطرق المحللة. ولم تكن ليعيش الفرد وسط افراد مجتمعه ليسلك سبل عاداتهم وتقاليدهم سواء أكانت قبلية أم مدنية. وإنما للوصول الى أعلى ما يمكنه الرقي وفقاً لإستعداده ووعاءه قال تعالى: «فَسَأَلْتُ أَوْدِيَةَ بِقَدَرِهَا...» (سورة الرعد: الآية ١٧).

ان اسمى ما في هذا الوجود العظيم والمنظومة الكونية الرائعة في التصميم الهندسي هو ان يعبد المخلوق خالقه بمعرفه وعلم ليقر بذل العبودية امام خالقه ويتحسسها، ولعل حرف ال (لام) في كلمة (ليعبدون) يشير الى جنس العبادة لا غيرها.

يقول العلامة الطباطبائي رحمه الله: «فالحق أن اللام في (الجن والإنس) للجنس دون الاستغراق، و المراد بالعبادة نفسها دون الصلوح والاستعداد، ولو كان المراد هو الصلوح و الاستعداد للعبادة لكان ذلك غرضاً أدنى مطلوباً لأجل غرض أعلى هو العبادة كما أن نفس العبادة بمعنى ما يأتي به العبد من الأعمال بالجوارح من قيام وركوع وسجود ونحوها غرض مطلوب لأجل غرض آخر هو المثل بين يدي رب العالمين بذلة العبودية وفقر المملوكية المحضنة قبالة العزة المطلقة والغنى المحض كما ربما استفيد من قوله تعالى: (قُلْ مَا يَعْْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ)، حيث بدل العبادة دعاء.

فحقيقة العبادة نصب العبد نفسه في مقام الذلة و العبودية وتوجيه وجهه إلى مقام ربه، وهذا هو مراد من فسر العبادة بالمعرفة يعني المعرفة بالحاصلة بالعبادة.

فحقيقة العبادة هي الغرض الأقصى من الخلقة وهي أن ينقطع العبد عن نفسه وعن كل شئ ويذكر ربه.

هذا ما يعطيه التدبر في قوله تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) ولعل تقديم الجن على الانس لسبق خلقهم على خلق الانس قال تعالى: (وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ)

والعبادة هي غرض الفعل أي كمال عائد إليه لا إلى الفاعل على ما تقدم» (الطباطبائي، ١٩٨٣م: ج ١٨، ص ٢٠٢).

إذا ذاق العبد السالك طعم العبادة معنويا، وتميز هذا الطعم بلذة مختلفة عن كل ما تذوقه في مجريات حياته العامة بمختلف مجالاتها، فالعارف سوف يشد الرحال الى صاحب هذا السر، سر لذة العبادة مهاجرا اليه في سبيله تاركا اهواء وشهواته وجميع مغريات الدنيا الدنية خلف ظهره، مستأنسا بحبيبه الحقيقي ذي العشق المطلق:

«الهجرة وهي الانتقال والرحيل سواء كان من الوطن الى غيره او من حال الى غيرها. وانها من اكمل الصفات الحسنة وأجلها ان كانت ناشئة من الحب الحقيقي الواقعي لله سبحانه وتعالى والانقطاع اليه جل شأنه، وبها يحصل الود والحب له عز وجل، ومنه تعالى لعبد.

بل ان الهجرة من الفناء في ذاته جلّت عظمتها، لأن بها يخرج الانسان من ذل ما توطن فيه من الصفات الذميمة ويبعد عن المعاصي - التي تحصل عن الاهواء الشيطانية - كالكبر والحسد والبطر والجهل وغيرها.

وبالهجرة فوز الانسان وينال الكمالات بأنواعها واقسامها الظاهرية والمعنوية» (سرور، ٢٠١٠م: ١، ص ٢١٠).

ان ما يميز الانسان عن المخلوقات الاخرى هو التكامل، ولكن أي تكامل؟

بطبيعة الحال، لا يقصد من التكامل هنا مراحل النمو المادي للجسد لأن في هذا توجد مشاركة بين جميع الحيوانات، ومن يطلع على بعض الدراسات التاريخية يجد ان الهيكل الجسدي للإنسان قديما كان اقوى وأطول بكثير مما عليه اليوم. ان الكمال يقابل النقص وهو غير التمام، لوجود معنى الرقي فيه في حين لا تشعر كلمة التمام بذلك. وبما ان مفردة الكمال يرافقها معنى الرقي فإن طريق الارتقاء مفتوح دائما للإنسان فيتكامل ويصل الى مراحل عالية من السمو، وهو الامر المطلوب كغاية في هذا النشأة.

ان المقصود من التكامل الانساني هو مدى قابلية الانسان للتغير الايجابي، بحيث تقوى الحقيقة الوجودية له وتتسامى وتفوق تكامل المخلوقات الاخرى فتصبح أعلى منهم جميعا.

«الانسان المتخلق بأخلاق الله تعالى يكون مظهرها من صفات لطف الحق، ولذا يكون قبوله قبول الحق، ورده رد الحق، ولعنه لعن الحق، ويكون دعاءه دعاء الحق كذا صلاته، فإذا صلوا على احد كان صلاتهم صلاة الحق... وهذا الكمال لا يتحقق في الانسان المؤمن الا بالمعرفة الكاملة والإفاقة من الغفلة» (المرجع نفسه: ص ١٨٩).

ان التكامل سبب السعادة، فلم يخلق الله عز وجل الخلق الا وهياً اسباب الهداية مسبقا لهم، فمن النعم الالهية على الناس هي ان الله تبارك وتعالى وفر سبل الوصول الى السعادة وهداهم لها بشكل تام وكامل، لكي لا يكون للناس حجة على الله تعالى في شئ فيحتاجوا به يوم القيامة.

ان اسباب السعادة والنجاح هي بيد الله تعالى يهدي لطريقها من يستحقها ومن يريدتها تقربا منه تعالى، فمن اراد السير على الصراط المستقيم سهل الله له هذا الطريق. قال تعالى: «فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» (سورة البقرة: الآية ٢١٣).

وأما اذا لم تتوفر الارادة عند الانسان وكان مصرا على السير في الطريق المعاكس تماما فإن الله سيضله لا محالة ليس ظلما من الله له وإنما هو من اختار طريقه «فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» (سورة ابراهيم: الآية ٤).

«فيا أيها الاخ المسترشد اعلم ان اعمالك مبنية على الدوام لا على الانقطاع، وإن كنت تراها منقطعة، ففي بعض الاخبار: ان السعيد من ماتت سيئاته بموته.

يعني من سعادته ان لا يعمل بها بعده، وإلا فإذا عمل بها اقتداء به واقتداء بمن اقتدى به كان عليه وزرها الى يوم القيامة» (البحراني، ١٤١٣هـ: ص ٥٥).

فلو اجتمع على العبد اهل السماوات والارض ليضلوه وقد ثبت الله هدايته في قلب العبد ما قدروا على ذلك لأن ارادة الله ستغلبهم، ولو اجتمع اهل السماوات والارض على ان يهدوا من اضل الله ما قدروا، الى ذلك يشير الامام الصادق عليه السلام في قوله:

«يا ثابت مالكم وللناس؟ كفوا عن الناس ولا تدعوا أحدا إلى أمركم فوالله لو أن أهل السماوات والأرضين اجتمعوا على أن يهدوا عبدا يريد الله ضلالتة ما استطاعوا على أن يهدوه، ولو أن أهل السماوات وأهل الأرضين اجتمعوا على أن يضلوا عبدا يريد الله هداة ما استطاعوا أن يضلوه، كفوا عن الناس ولا يقول أحد: عمى و اخى وابن عمى وجاري، فان الله إذا أراد بعبد خيرا طيب روحه فلا يسمع معروفا الا عرفه، ولا منكرا الا أنكره، ثم يقذف في قلبه كلمة يجمع بها امره» (الكليني، ١٤٢٦هـ: ١، ص ١٦٥).

اذن، ان الامر المهم في مسألة السعادة والنجاح هو الرحمة الإلهية، وان الله تعالى يهدي برحمته الى ساحته، فلولا هداية الله ما تمكن العبد من ان يحصل علي السعادة والنجاح ولا ان يسير على الصراط القويم، ان المهم في الامر هو ان يكون الاعتقاد بتطبيق هذه القوانين انها توصل الناس الى السعادة الابدية في الدنيا والاخرة لا في الدنيا وحسب.

الى ذلك يشير العلامة الطباطبائي رحمه الله من خلال تفسيره للآية الكريمة (لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ) حيث يقول «وقوله: (وتعيها أذن) الوعي جعل الشيء في الوعاء، والمراد بوعي الاذن لها تقريرها في النفس وحفظها فيها لترتب عليها فائدة وهي التذكر والاتعاظ.

وفي الآية بجملتيها اشارة الى الهداية الربوبية بكلا قسميها أعني الهداية بمعنى إراءة الطريق والهداية بمعنى الايصال الى المطلوب.

توضيح ذلك ان من السنة الربوبية العامة الجارية في الكون هداية كل نوع من انواع الخليقة الى كماله اللائق به بحسب وجوده الخاص بتجهيزه بما يسوقه نحو غايته كما يدل عليه قوله تعالى: (الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) ، وقوله تعالى: (الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى) ، وقد تقدم توضيح ذلك في تفسير سورتي طه والاعلى وغيرهما.

والانسان يشارك سائر الانواع المادية في ان له استكمالا تكوينيا وسلوكا وجوديا نحو كماله الوجودي بالهداية الربوبية التي تسوقه نحو غايته المطلوبة ويختص من بينها بالاستكمال التشريعي فإن للنفس الانسانية استكمالا من طريق افعالها الاختيارية بما يلحقها من الاوصاف والنعوت وتتلبس به من الملكات والاحوال في الحياة الدنيا وهي غاية وجود الانسان التي تعيش بها عيشة سعيدة مؤبدة. (الطباطبائي، ١٩٨٣م: ج ١٩، ص ٣٩٤).

ولذلك، نحن لا نسلم بالقوانين البشرية بزعم انها توصل الى السعادة الحقيقية، فكما قلنا قد تؤدي الى السعادة المؤقتة لا الابدية المطلوبة وذلك لأن هذه القوانين قابلة للخطأ وغير معصومة بعصمة السماء، فنحن انما نلتزم بالقوانين التي جاءت عن طريق الانبياء والرسل بصفتهم السفراء الشرعيين من قبل الله تبارك وتعالى.

يقول الطباطبائي رحمه الله: «وهذا هو السبب الداعي الى السنة الدينية بإرسال الرسل وانزال الكتب والهداية اليها (لِتَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) ، وقد تم تفصيله في ابحات النبوة في الجزء الثاني من الكتاب وغيره، وهذه هداية عظيمة بمعنى إراءة الطريق وإعلام الصراط المستقيم الذي لا يسع الانسان الا ان يسلكه، قال تعالى: (إِنَّا هَدَيْنَاهُ

السَّيِّلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)، فإن لزم الصراط وسلكه حي بحياة طيبة سعيدة وان تركه وأعرض عنه هلك بشقاء دائم وتمت عليه الحجة على أي حال، (لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ).

إذا تقرر هذا تبين ان من سنة الربوبية هداية الناس الى سعادة حياتهم بإراءة الطريق الموصل اليها، وإليها الاشارة بقوله: (لنجعلها لكم تذكرة) فإن التذكرة لا تستوجب التذكر ممن ذكر بها بل ربما أثرت وربما تخلفت. (المرجع نفسه، ج ١٩، ص ٣٩٥).

اقتضت المشيئة الالهية هداية جميع الخلق الى طريق السعادة، وذلك من خلال قوانين التشريع الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وعن طريق ما اودع الله تعالى من اجهزة في خدمة الانسان، فلا بد من التقيد بهذه القوانين ولا يتعدى حدودها بغية الوصول الى هدفه.

ولكن قد يجابه هذه الهداية بعض العراقيل المتمثلة بمتعلقات الدنيا من اهواء وشهوات كما ذكرنا، وما على العارف الا تجاوز هذه العراقيل التي من شأنها ان تسقط الانسان وتهوي به الى الارض مانعة له من الارتقاء الى السماء الصافية والفضاء النقي، ولعله من افضل الطرق لتجاوز هذه المشاكل المعنوية هو الصبر:

«والواصلون الى هذه المرتبة هم الاقلون، فلا جرم انهم الصديقون المقربون: (الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا) فهؤلاء الذين لزموا الصراط المستقيم، واستوتوا على الصراط القويم، واطمأنت نفوسهم واياهم ينادي المنادي: (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً)، فإذا اذعنت الشهوات وانقمعت وتسلبت باعث الدين واستولى الصبر بطول المواظبة اورث ذلك مقام الرضا» (الكاشاني، ١٤٢٦هـ، ١، ص ١٩٦).

النتيجة:

ان غاية العارف والسالك الى الله تعالى هو الوصول الى الحقيقة، وبنظر العارف يعتبر الكشف والشهود هو اذق طريق لمعرفة الحقيقة. وهذا الكشف والشهود لابد من ان يكون خاضعا للموازين والاصول والمبادئ الخاصة بهذا الفن. وما نقصده من الميزان والاصل هو السبيل لكي يمسك بيد السالك للتوجه صوب الحقيقة.

وعليه، فتركبة النفس وتنقيتها وتخليتها من الشوائب وتحليلتها بكل ما هو جميل يجعل هذه النفس متهيأة لاستقبال التجليات الالهية فيسير العارف بطريقه المتوهج بنور القدس الالهي متجها نحو الحقيقة ليتذوق طعم السعادة الحقيقية.

المصادر:

القرآن الكريم.

ابراهيم سرور، ٢٠١٠م، الاسرار الالهية، دار المتقين.

آقا نجفي اصفهاني، محمد تقى، ١٣٨١ هـ، اشارات ايمانية، ١، اصفهان ايران، مكتبة الفلسفة الاسلامية.

البحراني، حسين، ١٤١٣ هـ، الطريق الى الله، ١، بيروت لبنان، دار التعارف للمطبوعات.

بناه، يد الله يزدان، ٢٠١٤م، العرفان، مبادئه واصوله، ١، بيروت لبنان، مؤسسة امام خميني.

التركة، صائن الدين بن علي، ١٣٨١ هـ، تمهيد القواعد، قم ايران، مركز بخش.

الحيدري، كمال بن باقر، ١٤٣٦ هـ، الرؤية الكونية في العرفان النظري، بغداد العراق، مؤسسة الامام الجواد عليه السلام.

الطباطبائي، محمد بن حسين، ١٩٨٣م، رسائل سبعة، رسالة الولاية، قم، بنياد علمي وفكري.

الطباطبائي، محمد بن حسين، الميزان في تفسير القرآن، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة.

العاملي، يحيى رسلان، ١٤٣٩ هـ، نفحات روحية، ١، بيروت لبنان، دار المحجة البيضاء.

الفيض الكاشاني، محمد محسن بن مرتضى، ١٤٢٦ هـ، احوال السالكين، بيروت لبنان، دار المحجة البيضاء.

الكليني، محمد بن يعقوب، ١٤٢٦ هـ، اصول الكافي، بيروت لبنان، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات.

المجلسي، محمد بن باقر، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، المكتبة الشيعية الالكترونية.

المطهرى، مرتضى، ١٤٢٥ هـ، طهارة الروح، ١، بيروت لبنان، دار الرسول الاعظم.